إيشارْبْ

الأستاذ وهيب دياب

إيشارب ECHARPE كلمة دخيلة جاءتنا على طريق اللغة الفرنسية في عام ١٩٢٠ م عندما احتل الفرنسيون سورية وحاولوا استخارها[*] . والإيشارب في بلدنا قطعة نسيج مربعة ، وهي ذراع في ذراع ، تطويها المرأة فتجعلها فودين مثلثين فتغطي بها شعرها أو تحيطها بعنقها لتصونه بها أو لتزين بها عطفيها وصدرها . وقد خطر لي أن أقلب أوراق التاريخ اللغوي لهذه الكلمة فلجأت إلى كتب اللغة الفرنسية ، ونظرت في معجم ليتره (LITTRÉ) وهذا بعض ما وجدته :

إيشارب :

(١) شقة من نسيج مثلُ الحمالة (علاقة السيف) أو مثل المنطقة (زنار CEINTURE) .

(٢) علامة شرف أو رتْبة ، تكون لمحافظ المدينة (مثلاً) ، أو تكون شعار مشاركةٍ في حزب أو حرب .

(٣) وشاحٌ للزينة تضعه المرأةُ على التأريب OBLIQUEMENT بين عاتقيها وكشحيها من خلاف فيكون على صدرها في صورة X ، أو تجعله محيطاً بالرقبة والكتفين مرسلاً على الصدر .

ورأيتُ في معجم كليدا (CLÉDAT) الأصلغوي[1] أي (ÉTYMOLOGIQUE) :

إيشارب ، في البدء : هميان الدراهم (معْضَدة ، عفاص) أو جراب يُلزم في العنق ، والكلمة من أصل جرماني .

وقرأت في معجم روبير (ROBERT) :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إيشارب : من الفرانسيك (لغة جرمانية تكلم بها فرنج غاليا) SKERPA . في القرن الحادي عشر (ESCREPE) كيس له علاقة . في القرن الثالث عشر : شقة من نسيج مرسلة حول البدن . ثم :

(١) نسيجة عريضة مرسلة في انحراف من الكتف اليمنى إلى الكشح الأيسر ، أو تعقد حول الخصر . كانت قديماً للفارس الشريف وهي سيماء لوزير الحرب أو القائد ، وعلاقة يحملها المبعوث أو المعتمد أو الموظف المدني كمحافظ مدينة أو عريف شرطة .

(٢) عصاب لحمل ساعد مكسور .

(٣) شقة منسوجة (بجَف[٢] أو صيصية[٣]) توضع حول العنق أو تلقى على الكتفين وتكون من صوف أو حرير أو غير ذلك وتكون زينة للمرأة ولثاماً أو لفاماً أو وقاءً يستر العنق وتكون مربعة أو مثلثة . ووجدت في معجم لاروس (LAROUSSE) الأصلغوي :

إشارب ، في بداية القرن الثاني عشر (ESCREPE) . وفي غضون القرن الثاني عشر (ESCHERPE) من الفرانسيك (SKERPA) . كيس ذو علاقة وهو المعنى الأول بالفرنسية القديمة ، وباللغة السكندنافية (SKREPPA) . والكلمة من اللاتينية (SCIRPUS) - JONC نبات عشبي من الأسل تستعمل أوراقه لصنع السلال ـ وباتساع مدلول المعنى في القرن الثالث عشر : شقة مرسلة حول البدن .

وبعد أن قرأت مارويته ظلت كلمة إيشارب تدندن في خاطري الى أن تمثلت لي لفظة الشَّرْب الواردة في بعض كتبنا وإني أحب أن أعرض تاريخها . وسنوغل بين الأوابد ونبدأ رحلتنا من أقرب المتاحف إلينا ، اللغوية والتاريخية ، ثم نزور الأقصى فالأقصى .

هنا في مادة (بون) بتاج العروس للزبيدي المتوفى سنة ١٢٠٥ هـ نجد : (أبوان قرية بدمياط كانت أهلها نصارى وكان يعمل فيها الشراب الفائق) . وفي هذا الرسم غلط والصواب (وكان يعمل فيها الشرب الفائق) .ثم ننتقل إلى حسن المحاضرة للسيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ فنرى الشرب في مواضع متعددة منه .

ثم نزور التذكرة التيمورية لأحمد تيمور باشا فنجد في الصفحة ٢٦٤ ما نقله من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المواعظ والاعتبار للمقريزي المتوفى سنة ٨٤٥ هـ وهو مايلي : « القصب رماح ملبسة بأنابيب من فضة منقوشة بذهب . . . . ويشد بها المعاجر الشرب الملونة وتترك أطرافها مسبلة كالسناجق » .

ثم ننتقل الى كتاب الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري (٢ / ٣٤٦) لنقرأ ما نقله المستشرق آدم متز من كتاب المواعظ الذي ذكرته آنفاً وهو ما يلي : « وكان من ثياب الاسكندرية ما يباع الكتان منه ـ إذ عمل لها ثياباً يقال لها الشرب ـ كل زنة درهم بدرهم فضة » .

ثم نطالع في صبح الأعشى (٣ / ٤٧٢) للقلقشندي المتوفى سنة ٨٢١ هـ ، ماورد في أثناء الكلام على خزانة الكسوة : « الديباج الملون . . . . والشرب الخاص الدبيقي » . وفي أثناء مسيرنا سنسمع أن الشرب مذكور في مسالك الأبصار لا بن فضل الله العمري المتوفى سنة ٧٤٩ هـ ، وفي عجائب المخلوقات للقزويني المتوفى سنة ٦٨٢ هـ .

ثم لنتوقف عند مادة (ت ن س) في التكملة والذيل والصلة للصغاني المتوفى سنة ٦٥٠ هـ لنقرأ : « تِنِّيس ، مثال فسيق ، بلدة في جوز البحر ، وبها تنسج الثروب الجيدة » .

ثم لنتأمل معجم البلدان لياقوت المتوفى سنة ٦٢٦ هـ ففيه يقول : « أبوان مدينة كانت قرب دمياط من أرض مصر ويعمل فيها الشرب الفائق فيقال له بوني على غير لفظة » . وهذا يؤكد ما أصلحناه في تاج العروس آنفاً . كما يقول ياقوت : « دمياط : مدينة قديمة بين تنيس ومصر مخصوصة بالهواء الطيب وعمل الثرب الفائق » . وحين نصل الى الجبر (الهيكل) الذي يقيم به كتاب رحلة ابن جبير المتوفى سنة ٦١٤ هـ ونقلب صفحات الكتاب سنجد في الصفحة ٢٣ (طبعة دار التراث ببيروت) في تضاعيف الكلام على خطيب جامع في القاهرة ، ما يلي : « صفة لباسه بردة سوداء عليها طيلسان شرب أسود وهو الذي يسمى بالمغرب الاحرام » . وفي الصفحة ٦٥ نقرأ وصفه لخطيب بيت الله بمكة المكرمة وكيف يقبل :« متعمماً بعمامة سوداء مرسومة أيضاً وعليه طيلسان شرب رقيق » . وفي الصفحة ١١٢ نصادف وصفهُ لثياب الأمير مكثر ومنه : (وهو رافل في حلة ذهب كأنها الجمر المتقد يسحب أذيالها وعلى رأسه عمامة شرب رقيق سحابي اللون كأنها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

سحابة مركومة وهي مصفحة بالذهب » . ثم نصل إلى يتيمةٍ (واحة) قَلَّ من زارها وهي صريمة القاضي نشوان بن سعيد الحميري اليماني المتوفى سنة ٥٧٣ هـ ، وهو الذي سلك الشرب في مظنته ولم يلته من قدره شيئا ، فقد ذكره في مسرد مفردات معجمه المسمى شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم ، في باب الشين والراء وما بعدهما (الأسماء ، فَعْل بفتح الفاء) ففي الصفحة ٤٧٩ من الجزء الثاني من طبعة الملك الإمام الناصر لدين الله أحمد بن يحيى حميد الدين ، نجد :« الشَّرب ضرب من الثياب » وفي هذه الكتابة غلط مطبعي والصواب :ضرب من الثياب . ثم إننا سنزور مقبرة للخالدين وحين ندخل الجبار وهو فناء الجبان سنقترب من ودع أي حظيرة قبر مكتوب على رجمه « ظافر الحداد وهو من شعراء الاسكندرية توفي سنة ٥٢٩ هـ » . وهذا الذي قال :

والنيل مثل عمامةٍ شَرْبٍ محشاة بسأخضرْ

وقال في بركة الحبش :

تأملت نهر النيل طولاً وجلفه من البركة الغناء شكل مُقدَّرُ
فكان وقد لاحت بشطية نضرة وكانت وفيها الماء باقٍ مُوفَّرُ
عمامة شَرْبٍ في حواشٍ بخضرة أُضيف إليها طيلسانٌ مقوَّرُ

وقال يذكر أيامه بالاسكندرية :

كأن بياض الماء في كل جدول إذا لاح في غصن من الروض أخضر
غلالةُ شربٍ ضَمَّها فوق لابسٍ رشيقٌ قباءٍ أخضرٍ لم يُزَّرر

ثم هذا نصب تذكاري لكتاب السامي في الأسامي للميداني المتوفى سنة ٥١٨ هـ وفي الصفحة ١٣٢ منه نرى : « الشَّرْب كتان رقيق » .

ونواصل المسير حتى نصير إلى مقام الثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩ هـ والذي يقول في كتاب فقه اللغة : « الخنيف ما غلظ من الكتان ، والشرب مارق منه » . وقد جاءت شين الشرب مكسورة في طبعتي هذا الكتاب وهذا خلاف ما قيده نشوان .

ثم لنذكر أن آدم متزنقل إلى كتابه (الحضارة الإسلامية ٢ / ٣٤٨) من أحسن التقاسيم للمقدسي المتوفى حوالي سنة ٣٨٠ هـ ما معناه : « وسميت كازرون بفارس ، دمياط العجم ، فقد صنعت الدبيقي والشرب والقصب » . وهنا يجب أن نقول : إنا لسنا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ندري من أولُ من مدّ هذا السدى وأيده بلحمته ، ومن الذي حاكى غيره في صنعته . ولنذكر أننا نجد في الصفحة ٩٨ من أحسن التقاسيم : « شروب عدن تفضل على القصب » .

وهنا برج الشاعر البصري عبد الصمد بن المعذّل المتوفى سنة ٢٤٠ هـ الذي نظم في الافشين قصيدة منها :

ثم أجلوك كالعروس على الشَّرْ ب تَهادى في مجْسَدٍ مصقولِ

وسنة وفاة ابن المعذّل من بنات القرن التاسع الميلادي أي لدة عام ٨٥٤ م والبيت الذي رويناه هو من قصيدة نجدها بين أخبار ابن المعذل في رياض (الأغاني للأصبهاني) .

والآن حان لنا أن نكشف عن رقم فيه خبر سجله ياقوت في معجمه وهذا بعضه : « ومن ظريف أمر دمياط ، في قبليها على الخليج مستعمل فيه غرف تُعرف بالمعامل يستأجرها الحاكة لعمل الثياب الشرب . . » .

وفي أيام المتوكل سنة ٢٣٨ هـ (٨٥٢ م) يهجم الروم على دمياط في يوم عرفة فملكوها وما فيها وقتلوا جمعاً كثيراً من المسلمين وسَبوا النساء والأطفال وأهل الذمة » . وبعد أن قرأنا ما رواه ياقوت ، ألا يحق لنا أن نتساءل هل كانت كلمة الشرب من السبايا أو الأسلاب التي حملها الروم إلى بلادهم ؟ وأليست كلمة إيشارب سليلة الشرب ، ولكن ما هذه الهمزة المنبورة في أول إيشارب ؟ إنها ألف (ال) التعريف حسبوها عضواً رئيساً منها فألصقوها بها ، والكلمة في شكلها الحالي نكرة عندهم معرفة لدينا ، وانهم لم يرسموا اللام لأنها لا تلفظ قبل الشين التي هي من الحروف الشمسية ولم يفطنوا لذلك ، ألا نرى الرتيلى ، وهي من العناكب ، كيف أصبحت في المعجم الإيطالي (اوراتيلي ORATELLI) وكيف صارت في المعجم الفرنسي (أرانتيل ARANTELLE) ولكن معناها فيه بيت العنكبوت أي نسجه الذي كانوا يسمونه الشع والهلل والنواس والجعدبة والكعدبة وحُقّ الكهدل . ولننظر إلى الزعرور في المعجم الانكليزي كيف رسموه (أزارول AZAROL) . كذلك رقموا الطبل في المعجم البرتغالي (أتابال ATABALE) وكل هذه الكلمات نكرات عندهم فإذا ألبسوا إحداها حلية التعريف صارت في أسماعنا مسبوقة بأداتين الأولى غربية والثانية عربية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لقد أقام الكثير من أسماء الثياب العربية في الأرض الكبيرة أي في (أُورفي) كما كان يسميها أبو الريحان البيروني والتي نسميها اليوم أوربة . ومن هذه الأسماء : الحلبي وهو في المعجم الفرنسي ALEPINE ، والدمشقي الذي سموه DAMAS ، والغزي وهو عندهم GAZE ، والموصلي الذي يدعونه MOUSSELINE ، ثم العتابي الذي اختلفوا في كتابة اسمه فهو في كتبهم TABIS و ATABIS و ATTABI . وهذا منسوب إلى محلة العتابيين في بغداد ، واسمها في معجم ياقوت في مواد جهارسوج ودار القز وربض نصر بن عبد الله . لقد اعترف معجم روبير بالأصل العربي لمعظم هذه الكلمات ولكنه شك في نسبة الغزي وأما العتابي فقد ترجم عليه بكلام أراه نصيراً لي فقد قال : (تابي في القرن الرابع عشر من عتابي ، من لاتينية القرون الوسطى ، وعتابي من العربية) . وهذا اعتراف صريح بأن اللاتينية لبست الحلل العربية وتزينت بحليها .

ويجول في خلدي أن الشرعبي يمّت إلى الشرب بحرمة ويتوصل بقرابته وإن صَدَق الاستقراء فالشرب قديم في حضارتنا والشرعبي والشرعبية ضرب من البرود ، وقد أنشد الأعشى الكبير أبو بصير الذي مات سنة ٣ هـ ٦٢٩ م .

والبغايا يركضن أكسية الإضـ ريـج[٤] والشرعبيّ ذا الأذيال

وشرعب قبيلة حميرية وهم ولد شرعب بن سهل وإليهم تنسب الرماح الشرعبية والبرود الشرعبية . ويبدو لي أن هذه الكلمة مؤلفة أي مركبة أو منحوتة من جذري شرع وشرب ، والشريع جيد الكتان . ومثل شرعب في النحت : خشرب ، يقال : خشب العمل والكلام والشعر أي لم يُجَوِّده ولم يتنوق فيه ، والخشار : الرديء من كل شيء ، وخشرب العمل لم يحكمه ولم يتقنه . وهنا لا بد من القول إن ابن فارس لم يحلل هاتين الكلمتين في مقاييس اللغة بل لم يذكرهما في معجمه .

ثم لا بأس في أن نروي اسماً آخر من أسماء الكتان إذ قال الدينوري في كتاب النبات : (يقال للكتان : الزير) .

وفي (زير) شطر غير يسير من أحرف (SCIRPUS) ولكن ملامح شَرْب هي التي تخترق الناظر والخاطر .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والشَّرب مصدرُ شربتُ أشرب شرباً وشْرباً ، والتِّرب (بكسر الشين) هو الماء بعينه . فهل لنا أن نقول : إنهم رأوا في رقة الشَّرب شبهاً من رقة الماء فسموه بمصدرٍ يلازم الماءَ .

وإننا حين نمعن في التفتيش نجد في المخصص لا بن سيده (٤ / ٦٤) : « السكب ضرب من الثياب رقيق كأنه سكبٌ ماءٍ من الرقة » . والماء والسكب مما يتوارد في الكلام . ولنتذكر أصحاب اليمين في سورة الواقعة وكيف يكونون (في سدْرٍ مَخْضودٍ وطلحٍ مَنْضودٍ وظلٍّ مَمْدودٍ وماءٍ مَسْكوبٍ) . ولقد تذكرت فائدة بديعة ، فبعد السكب ذكر ابن سيده القصب فقال : « ثياب كتان رقاق ناعمة الواحد قصبي ، قال أبو علي : لا نظير لقصبي وقصب إلا عركي وعرك وعجمي وعجم وعربي وعرب » .

بلى هنالك نظيران آخران نذكرهما للإفادة وهما : قَلَعي وقَلَع ، لصنف من السيوف ، وحَرَسي وحَرَس وهم المرتبون لحراسة السلطان وخدمته .

هذا وإن فراسة القائف اللغوي يجب أن تستدعي كلمة الشَّرب (بالشاء) وتضعها إلى جنب الشَّرب لعل أساريرها تسترعي الانتباه ، وربما نسب قديم يجمعها ، فالثرب شحم رقيق يُغَشِّي الكرش والأمعاء . أليست الثابة هي الشابة وإن قيل هي لثغة ، والثمج هو الشمج وإن قيل هذا إبدال .

وربما يكون اسم الشرب من روائع الأولين صانعي الكلام ومصوري الأصوات . فالثرب والشرب تشابها بالخلقه وتشاركا في الرقة . وهلا تأملنا معارف الأنين والحنين ، والخمود والهمود ، والجزع والفزع ، واللفح الذي هو من الحر ، والنفح الذي هو من البرد . وهلا تذكرنا أن اللبط باليد ، والخبط بالرجل ، وأن كل عقدة في جلد أو لحم فهي بُجْرة ، وكل عقدة في خشبة أو عظم فهي عُجْرة . وليتنا نضع ذلك في موازين المناسبة[٥] الصوتية لنستعين بها لعلها تفتح ما أُبهم علينا .

وكذلك ربما يكون الشّرب اسماً برأسه فقد سأل يونس أبا الدقيش الأعرابي : ما الدقيش ؟ فقال : « لا أدري ، إنما هي أسماءٌ نسمعها فنتسمى بها » . ثم إن علينا أن نتذكر أن اقتفاء آثار أصل كلمة في سحيق أطواء الزمان ، أشد على المحقق المدقق من قطع أجواز

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فلوات الجان . ومهما يكن فان اسم الشرب في ماضينا أعرق ، والظاهر أنه من لغتنا أشرق وتألق . وفي صبح الأعشى (١٤ / ٣٧١) وفي أثناء الكلام على بيان معالم البريد ، نرى : « وفي ذلك اللوح ثقب معلق به شرابة من حرير أصفر ذات بندين يجعلها البريدي في عنقه بإدخاله رأسه بين البندين ويصير اللوح أمامه تحت ثيابه ، والشرابة خلفه من فوق ثيابه . . . . فكل من رأى تلك الشرابة خلف ظهره علم أنه بريدي » . وقد قال دوزي في تكملة المعاجم العربية ما معناه : « الشرابي جمع شربية وهي في المغرب منديل من حرير تغطي به المرأة شعرها » . ولكن دوزي لم يذكر كلمة إيشارب التي هي على الأرجح سليلة الشرب ، وإن ذلك لم يخطر على باله ولم يفطن له .

٧ / ١٢ / ١٩٨١ **وهيب دياب**

(☆) استخارها : استعبادها . واستخسرهم : أخذهم قهرا وتملّك عليهم . وأما استعمرهم في المكان ، فمعناه : جعلهم يعمّرونه وأذن لهم في عمارته . والآية ٦١ من سورة هود ، تقول : (هو انشأكم من الارض واستعمركم فيها) . واستعمل الخاصيون كلمة الاستعمار بدل الاستخبار تمعدا في التضليل حين استساغوا الظلم .

(١) كلمة نحتُّها من كلمتي (أصل) و (لغوي) لتقابل ÉTYMOLOGIQUE

(٢) الحف : المنسج .

(٣) الصيصية : الصنارة يغزل بها .

(٤) الخز الأحمر

(٥) HARMONIE

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net